الافتتاحيّة: جدليّة العلاقة النّحويّة بين سيبويه والنّحو العربيّ

د. خديجة عبدالله شهاب(*)

يعيش العالَمُ اليومَ ذروةَ التّطوّر التكنولوجيّ، اكتشف مجاهلَه، وغاص في البحار فتعرّف إلى مكنوناتها، وأسرار الجمال فيها، وضع يده على ثرواتها وقضّ مضاجعَ ساكنيها.

وعلى الرّغم من هذا، فلا يزال الكثيرُ من العلماء والمفكّرين والمثقّفين يعودون إلى العصور الثقافيّة والأدبيّة القديمة وبالتحديد إلى الحقبة الذهبيّة حيث «شمس العرب سطعت على الغرب» على حدّ قول المستشرقة الإلمانيّة «زغريد هونكيه»، تلك الحقبة التي شهد فيها العالمُ بأجمعه للحضارة العربيّة والإسلاميّة بنورها الذي أضاء للبشريّة نورَ العلم، وما قدّمته للإنسانيّة من اكتشافات واختراعات غيّرت وجهَ العلوم والمعارف، وأعطت للحياة دفعًا نحو الاستمرار في التّقدّم العلميّ والأدبيّ والاجتماعيّ والثّقافيّ.

في هذا السياق؛ سأسلّط الضوءَ على أحد أئمة النّحو العربيّ، الذي طبقت شهرتُه الآفاقَ لنعرّفَ الأجيالَ الحاضرة إلى فكره وعلمه، سأعرفهم بسيبويه.

(*) أستاذ دكتور في الجامعة اللبنانية كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانيّة، ورئيس تحرير مجلة أوراق ثقافيّة- مجلة الآداب والعلوم الإنسانيّة.

عدّ بعضُ النّقاد والدّارسين علمَ النّحو من «أسمى العلوم قدرًا، وأنفعها أثرًا، به يتثقف أَوَدُ اللسان، ويسلس عنانُ البيان، فمن هو ذا الّذي ساهم في تثقيف لساننا العربيّ، وحسّن بيانَنا لنكون تلك الأمّة النّاهضة بعلومها في زمن عزّت المعرفة والثقافة لدى أمم أخرى. هو «عمرو بن عثمان بن قنبر، فارسيّ الأصل ينتمي بالولاء إلى الحارث بن كعب بن عمر بن ... مالك. ولد في «البيضاء»، وهي أكبر مدينة في كورة اصطخر في بلاد فارس.

طاف سيبويه في بغداد يطلب العلم من أهلها وعلمائها وفقائها، فصاحب أهلَ الحديث والفقه وتتلمذ على العديد منهم. كان فريدَ زمانه، نالَ من الشّهرة من لم يسبقه إليها أحد، إلّا أستاذه الخليل بن أحمد، وشهد له بذلك أساتذته، وسائر العلماء الّذين عاصروه، وجمهور الشّعب في الأمّة العربيّة الذين تأثّروا به وقلّدوه.

طوّع الفكرَ البشريَّ باتجاه النّحو العربيّ، يسهّل تمارينه وتدريباته وتطبيقاته، ليطمئن إلى أنّه سيكون له قدم راسخة في الأمّة العربيّة وليقول إنّ العلوم للأقوى على مستوى النّبوغ الذهنيّ والفكري. هو واثق من نفسه، مؤمن بقدراته العلميّة والفكريّة والنحويّة.

ويرى الدكتور «شوقي ضيف» أنّ الخليل وتلميذه سيبويه هما اللذان فتحا بابَ التمارين غير العمليّة على مصراعيه، ما جعل النّحاة بعدهما يعمّمون ذلك، ويتسعون، وذلك إظهارًا لمهاراتهم، وقد يكون ذلك لتدريب بعض الناشئة النّحاة على الدّقة في التّطبيق.

في مطالعةٍ حثيثة لحياة سيبويه لا نعثر على الكثير من المؤلّفات، ولم نعرف أنّ سيبويه نال شهرته إلّا من خلال «الكتاب» إذ رجّح البعض أنّ هذا الاسم أُطلق على مؤلّفه بعد وفاته. إذ إنّه لم يسمِّ كتابَه الشّهير الّذي فاق العشرين جزءًا، وقد ضمّ فيه النّحوَ العربي برمته،

لم يكن يقتصر الكتابُ على قواعد النّحو فحسب، بل شمل قواعدَ الصّرف أيضًا، ففيه أبواب أوزان الكلمة، وأنواع الاشتقاق المختلفة، والتثنية، والجمع، والإعلال،

والإبدال، والتّصغير، والنسب، وغير ذلك الكثير من أبواب التّصريف..

فبعد أن جعله كتابًا يضمّ النّحوَ العربيّ كلّه، قسّم كتابه إلى أبواب بلغت نحو ستمائة؛ كلّ باب منها يعالج ناحية من نواحي القواعد ومحدّدًا في المباحث الآتية: الفاعل والمفعول، ما يعمل عمل الفعل، وإعمال المصادر، واسم الفاعل والمفعول، والصّفة المشبهة والحال، والظرف، والجرّ والتّوابع المعرفة والنّكرة، والمبتدأ والخبر، والأسماء التي بمنزلة الفعل والأحرف المشبه بالفعل، والنّداء، والتّرخيم، ... ما يعني أنّه خصصه للمبادئ الأوّلية التي على النّحويّ أن يجيدها قبل أن يغوص بالنّحو الأكثر تعقيدًا- إذا صحّ أنّه معقّد- ولم يعقّده الذين يدرسونه.

يصعب عليّ أن أنهي كلامي عن سيبويه أحد أفذاذ النحو العربيّ، واللافت في شخصه أنّه استطاع أن يجمع حوله الأصدقاء كما المناوئين والأعداء، الكلّ نهلَ من علمه.

تبيّن لي أنّ العلاقة النّحوية بين سيبويه و النّحو علاقة جدليّة خذلها في البداية، فرفعته إلى مصافي الأئمّة في النحو، أعطاها فجعلته فريدَ عصره وزمانه، وفريد النّحويين الذين سبقوه والّذين جاؤوا بعده، قدّم اللغة لأهلها على طبق من العقل والمنطق، ما ساهم في بقائها وانتشارها بين أهل أمصار العالم.